في المقـــالة

Anthologie de la littérature arabe contemporaine, II, Les Essais, par Anouar Abdel-Malek. Editions Les Seuil, Paris, 1965

« مختار الادب العربي المعاصر » . انه عنوان السلسلة المثلثة الحلقات التي تصدرهـا تباعا ، اي كل سنة حلقة ، دار النشر الفرنسية (لوسوي) . فقد صدرت الحلقة الاولى منذ عـام تقريبا بعنوان « القصة والرواية» ، ثم صدرت الحلقة الثانية منذ أسابيع بعنوان « المقـالات » ، وستصدر الحلقة الثالثة « الشعر » في نهاية العام القادم .

حلقات ثلاث، او مجلدات ثلاثة، غايتها ايقاف الفرنسي اللسان على صفوة مـــا عندنا في ادبنا الحديث ، شعرا ونثرا . غاية حميدة نصفق لها يوم نعرف ان دار (لوسوي) هي التي تتعهدها ، ويوم نعرف ان الاستاذ جاك بيرك هو الذي يشرف عليها. فقد كانت المقدمة التي صدر بها المجلد الاول آية في الشمول والتعميق ، تتحرى دراسة الشخصيـــة العربية كما تتحرى الاطلالة الكاشفة على ادبنـــا وتفكيرنا جميعا .

من حق المجلد الذي بين ايدينا علينا ان نتفحصه على ضوئين ، ضوء مقدمته وضوء نصوصه .

المقدمة خمس وعشرون صفحة مرصوصـــة . عنوانها : مدخل الى الفكر العربي المعاصر . ان في تلخيصها تلخيصا للمتجه الذي يتجهه المؤلف . قال : غاية هذا الكتاب هي الوقوف على ما ينطوي عليه الفكر العربي الحديث من نظرات واعتمالات. والعالم العربي يؤلف وحدة وطنية ثقافية تستند الى عاملين . العامل الاول ثقافي هو ، مداره جودة اللغة العربية وامتيازهـــا . واذا كانت العربية مشتركة بين بلدان عديدة فان هذا الاشتراك هو دلالة على وجود ثقافة مشتركة ايضا. اما العامل الثاني فتاريخي وسياسي، مداره الحركة الوطنية العربية.

لهذه الحركة الوطنية مرحلتان مرت بهما . الاولى من اوائل القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية . مظاهرها : اقطاعية ، ثم رأسمالية زراعية تصـــارع قوى الاحتلال ، ثم برجوازية خطيرة الشأن مفيدة . على ان هذه البرجوازية ما عتمت ان حلت محل الاجنبي في امتلاك الاراضي الواسعة ووسائل الانتاج . عندها ثارت الطبقات العاملة فنشأت النقابات والاحزاب ، وكان ذلك في اعقاب الحرب العالمية الاولى . اما المرحلة الثانية للحركة الوطنية العربية فكان انطلاقها بعد الحرب العالمية الاخيرة ، وكانت مظاهرها كما يلي : دول وطنية مستقلة ؛ اشتراكية وراء جميع الحركات ؛ اشتراكية تعضد النهضة الوطنية .

هذا من حيث المظهر السياسي . اما من حيث التفكير فان العالم العربي قد شهد ويشهد تيارين متكاملين حينا ومتعارضين اكثر الاحيان . التيار الاول هو التقليد الاسلامي ، او الترسخ الاسلامي، بمعنى العودة الى مصادر الدين للحوار مع الازمنة الجديدة . والتيار الثاني هو العصرنة الليبرالية التي تستند الى الحضارة الغربية .

بعد الحرب العالمية الاولى استقلت بعض البلدان العربية استقلالا شكليا فعجزت عن حل مشكلات النمو الاجتماعي ، لذلك عمدت امـــا الى الاسلام واما الى الماركسية وامـــا اليهما معا لحل هذه المشكلات . فكان الترسخ الاسلامي على وجهين : تقليدي محافظ، او تقدمي ليبرالي ينهج نهج اوربا او ينظر الى الاشتراكية نظرة قومية صرف .

على ان بين القومية الاوربية والقومية العربية فروقا عديدة. فالقومية الاوربية سلبية هي، بمعنى الانطواء على الذات ؛ وهي ايجابية ، بمعنى التوسع على حساب الآخرين . بعكس القومية العربية التي لا تنطوي على نفسها لانها بحاجة الى غيرها كي تطرد قوى الاحتلال ، ولا تعمل على التوسع لانها تكتفي بمداها الحيوي .

تستند هـــذه القومية الى الوحدة العربية التي توصف ذاتها فوق مدماكين متكاملين، هما الشخصية المتميزة التي كانت لاكثر الاقطار العربية قبل الفتح

العربي ، ثم الوحدة الجامعة ، وحدة اللغة والدين والتاريخ والنضـــال ضد الاستعمار .

وعلى اي حال ، فلا مجال عندنا للتفكير المجاني وللاشتغالات الادبية التي تنتسب الى نظرية الفن للفن . لا مجال عندنا لغير ما هو اجتماعي عربي اشتراكي . ان للنظريات استطالة في الواقع ، وان التطبيقية هي ديدننا في جميع ما نقول ونعمل . يدور كل شيء عندنا حول النهضة القومية ويتلاقى سلم قيمنا بالحركات الاشتراكية جميعـا . فكيف العمل اذاً على التوفيق بين مناقبية الربح ومقتضيات النهضة القومية ؟ اننا ننتقل من القرون الوسطى الى العصر النووي ، من الاقطاعية الى الاشتراكية، من العبودية الى النهضة . واذا كان الامر كذلك فمن الخطـــأ القول بان انساننا اليوم هو انسان التوجع والحقد والغيظ . انساننا هو انسان العودة الى ذاتنا السليبة وارجاعها الينا كما هي عليه في طبيعتها الاصيلة .

هذه المقدمة المكثفة التي لخصنا اهم ما فيها هي المصباح الذي على ضوئـــه ندخل الى تضـــاعيف الكتاب، فنقع على تسعين نصا لاربعة وثمانين مفكرا ينتمون الى مصر ولبنان وسوريا وفلسطين والعراق والسودان وتونس والجزائر والمغرب والعربيـــة السعودية واليمن . وقد تم تبويب النصوص وفق مرحلتي الحركة القومية اللتين نوهنا بهما . وفي كل من المرحلتين تبويب مشابـــه يستند الى الترسخ الاسلامي اولا، والعصرنة الليبرالية ثانيا ، وينطوي على التفكير السياسي والاجتمـــاعي ، والدين والفلسفة ، والجمالية والثقافة .

تبويب منهجي صـارم يغلب فيه الوضوح على مسايرة الحقيقة المتشابكة . اما الاختيار ، وهو اصعب ما في عمل كهذا ، فيقول المؤلف انه يستند الى ثلاثة معايير : اولا تمثيلية المؤلفين داخل تيار فكري معـــين ؛ ثانيا ، تأثيرهم على وسطهم الاجتماعي ؛ ثالثا ، فذوذية الفكر او الاسلوب .

ما مقدار هذه المعايير من الصحة ؟ وهل هي التي يجب ان يتم وفقهـــا الاختيار ؟ وهل تكفي منفردة ام مجتمعة لاعتماد نص من النصوص ومؤلف من المؤلفين ؟

يوم نسلم بان الافكار التي عرضها انور عبد الملك في مقدمة كتابه هي التي خضت العالم العربي وما زالت تخضه حتى اليوم ، يصبح بمقدورنا ن نوافقه على ان اكثر الذين احتفظ لهم بنصوص هم ذور صفة تمثيلية اكيدة . ويوم نسلم معه بان السياسة هي الثقافة والتفكير ، نوافقه في الابقاء على من ابقى ، لا في تنحية من نحّى .

ومهما يكن من امر فـــان استعراض اسماء المفكرين والادباء والساسة والمصلحين الاربعة وثمانين يدل بوضوح على نقص في المعرفـــة يشرح التحيز والاغراض ولا يبررهما . ذلك ان المؤلف ، على ما يبدو ، لا يعرف من العالم العربي معرفة حقيقية سوى مصر وحدها، فاقطعها من كتابه مكانا يعادل، منفردا، مكان البلدان العربية العشرة الاخرى التي اثبت شيئا لبعض ممثليها .

كما ان التحيز والاغراض باديان في المتجه السياسي الذي يتجهه المؤلف ، لانه القاسم المشترك لجل ما تخيره صاحب الكتاب ، اذا لم نقل لكله . فاذا كان عنوان السلسلة الشامل « مختار الادب العربي المعاصر »، كان من الصعب ان نولي السياسة حصة الاسد ، حتى في حلقة « المقالات » هذه . هل الخطب السياسية هي « المقالات » في الثقافة العربية الحديثة ؟ هل اصحاب المحاولات الفكرية هم رجال الدول والمؤسسات والاحزاب السياسية؟

والادهى من كل ذلك هو اغفال الحركة المهجرية اغفالا : كأن جبران والريحاني ، مثلا ، لم يخلفا اثرا في المكتبة العربية وفي الفكر العربي !

كما يغفل المؤلف قضية فلسطين . اليست هذه القضية محورا خطير الشأن بين محـــاور النضال السياسي العربي الذي اولاه عنايـــة تفوق عنايته بشؤون الثقافة والادب؟ حتى ليظن القارىء الاجنبي ان المسألة الفلسطينية هامشية هي، لا تستحق بنظر مثقفينا ان يفتح لها في كتاب رصين باب او نافذة.

هذه بعض مآخذنا على الكتاب في رثايته الشاملة. اما الترجمة فقد تكون حسنة في بعض النصوص التي لم نقابلها باصلها. في حين ان ما قابلناه بالاصل قد بدا لنا مشحونا بالمغالط ، مما يضيع المعنى او يبدله تبديلا . والكريم، هنا ، من لم يعذر .

روّاد طربيه